الديميورج الشرير
المؤلف(المؤلفون): إ. م. سيوران وفريدريك براون
العمل(الأعمال) المنقح:
المصدر: مجلة هدسون، المجلد. 20، ص. 2 (صيف، 1967)، ص. 189-200، نُشر بواسطة:
مجلة هدسون ريفيو.

إي. إم. **سيوران**

الديميورج الشرير

الإنسان، باستثناء بعض الشذوذ، لا يميل إلى الخير؛ فما يدفعه إليه الإله؟ هو أن يفعل أي شيء صغير غير ملوث بالشر، يجب عليه أن يتغلب على نفسه، ويمارس العنف ضد نفسه. كلما نجح، يستفز، ويهين سيده. وإذا كان صالحًا ليس بالجهد أو الحيلة ولكن بالطبيعة، فهو مدين بصلاحه لبعض الهفوات العليا، لأنه يقف خارج المخطط الكوني، ولم يكن متوقعًا في أي خطة إلهية. من الصعب أن نفهم ما هو المكان الذي يشغله بين الكائنات، إذا كان بالفعل واحداً منها. ربما هو شبح.

الخير هو ما كان أو سيكون، وهو ما لن يكون أبدًا. إنه طفيلية الذاكرة أو التوقع، إما ميتة أو محتملة، لا يمكنه أن يكون حاضرا، ولا أن يبقى على قيد الحياة بمفرده: طالما أنه موجود، فإن الوعي لا يدركه، ولا يدركه إلا بعد أن يختفي. كل شيء يثبت عدم جدواه. إنه قوة عظيمة، غير واقعية، مبدأ أجهض منذ البداية: فشل، انهيار لا يمكن نسيانه، ستظهر آثاره مع تطور التاريخ. في البداية، في تلك الفوضى التي جعلت العالم يتجه ببطء نحو الحياة، لا بد أن شيئًا لا يمكن ذكره قد حدث، والذي لا يزال حتى الآن يخترق أوجاعنا، إن لم يكن تفكيرنا. كيف لا نفترض أن الوجود قد تلوث في مصدره، الوجود والعناصر ذاتها؟ من لا يشعر بأنه مجبر على التفكير في هذه الفرضية ولو مرة واحدة في اليوم، فإنه سيمضي حياته نائماً.

من الصعب، بل من المستحيل، أن نصدق أن الإله الصالح، "الأب"، كان متورطًا في فضيحة الخلق. كل شيء يقودنا إلى تبرئته، إلى إيجاد صانعها في إله خالٍ من التحفظات، إله مشوه. إن الخير لا يخلق: فهو يفتقر إلى الخيال اللازم لتشكيل عالم، حتى لو كان عالماً عشوائياً. إن خليطًا من الخير والشر قد يؤدي، إذا وصل الأمر إلى ذلك، إلى إثارة فعل أو عمل. أو كون - ولكن عالمنا، على أية حال، يمكن إرجاعه بسهولة أكبر إلى إله مشتبه به وليس إلى إله شريف.

من المؤكد أن الإله الصالح لم يكن مجهزًا للخلق: فهو يمتلك كل شيء ... باستثناء القدرة المطلقة. إن نقائصه هي مقياس عظمته (فقر الدم والخير يسيران جنبًا إلى جنب)، فهو نموذج للعجز: فهو لا يستطيع مساعدة أي شخص.... نحن نتمسك به فقط عندما نتخلص من بعدنا التاريخي؛ عندما نستعيده مباشرة، يصبح غريبًا، غير مفهوم - لا يفتننا على الإطلاق، ولا يحمل أي شيء من الوحش بداخله. لذا نلجأ إلى الخالق، وهو إله أدنى مرتبة ومتسلط، ومحرض على الأحداث. ولكي نفهم كيف كان قادرًا على الخلق، علينا أن نتخيله في قبضة الشر، الذي هو الابتكار، والخير، الذي هو القصور الذاتي. لا شك أن هذا الصراع كان ضارًا بالشر: فلا بد أنه ظهر ملوثًا بالخير، وهو ما يفسر لماذا لا يمكن للخليقة أن تكون شريرة بالكامل.

وبما أن الشر يسيطر على كل ما هو قابل للفساد، أي كل ما هو حي، فإن أي محاولة لإثبات أن الشر يشمل ما هو أقل من الخير، أو حتى لا يشمل أي شيء على الإطلاق، ستكون سخيفة. في الواقع، يقترب الأمر من احتكاره: إنه حقيقي، مبالغ فيه إلى حد كبير، إنه اللامحدود (بالمعنى الإيجابي والسلبي على حد سواء) لأن الأشياء تحتاج إلى وساطته لتتجاوز حدودها، فتزدهر أو تذهب إلى البذور. بدونها، سوف يتوقف النمو، وسوف يتم إلغاء الممكن، وسوف نصل إلى الأبدية، وسوف تتحول الحياة إلى نوبة حمى. فلا يمكن اعتبار الحياة صحية إلا إذا كان مبدأها كذلك، إلا إذا افترضنا نظافة الشر. إنه شر، على أية حال، أنه من خلال هز الواحد المتأصل في هويته، حطمه إلى الأجزاء التي نحن عليها؛ إننا مدينون بالقوة والأناقة للشر، صانع الأفراد.

إنه يحفزنا، ويقوينا، ويعارض أي عودة إلى الوحدة التي سادت قبل التشرذم، قبل أن ينحرف الوعي. أما الخير، من ناحية أخرى، فيدعونا إلى استعادة الكل، ويحاول معالجة التشتت والشتات؛ باعتباره حنينًا إلى ما كنا عليه من قبل... كونه، من الناحية الميتافيزيقية، شيئًا من الماضي، عفا عليه الزمن. في محبتنا لما يؤكدنا كأفراد فقط، نعلن،

سواء أحببنا ذلك أم لا، امتناننا للإله الشرير، لموزع الوجود ومؤلف التنوع العالمي. الخير يجعلنا ضعفاء. إذا قمنا بزراعته أو وجدنا أنفسنا منجذبين إليه، فإننا نفقد قوتنا وربيعنا، ونتخلى عن حالتنا كمخلوقات، وفي النهاية ننفي أنفسنا من العالم. إن الأشخاص الذين يخلطون بين الشر والعدم يتصورون أن هذا وسيلة لتخفيف العبء عن الإله الصالح الفقير. إن إنقاذه يتطلب الشجاعة لفصل قضيته عن قضية الديميورج. إن المسيحية، بسبب خوفها من هذه الفكرة، اضطرت إلى أن تقضي حياتها المهنية بأكملها في الترويج، قدر استطاعتها، لفكرة الإله الرحيم غير المعقولة: وهي فكرة عقيمة سرقتها من طاقتها وعرضت الإله الذي سعت إلى الحفاظ عليه للخطر.

لا يمكننا إلا أن نعتقد أن الخلق، الذي لم يكن أكثر من مجرد شكل تقريبي، لم يكن من الممكن أن ينتهي، ولا يستحق أن ينتهي، وأنه في مجمله خطأ؛ وفي ضوء ذلك، فإن خرق الإنسان الشهير يظهر كنسخة بسيطة من خرق أخطر بكثير. ما هو ذنبنا؟ من اتباع مثال الخالق، بشكل أو بآخر، أو بشكل عبودي. إن مصيره المحتوم ندركه بوضوح في أنفسنا: وليس من قبيل المصادفة أن الأيدي التي شكلتنا تنتمي إلى إله تعيس وشرير، إلى إله ملعون.

وبما أننا مقدرون في معتقداتنا، سواء كنا نؤمن بالإله الأعظم العاجز، أو بالديميورج، أو بالشيطان، فإننا لا نختار ما نعبد أو نكفر به.

الشيطان هو الممثل، مندوب الديميورج، الذي يشرف على شؤونه هنا على الأرض. وعلى الرغم من مكانته والرعب الذي يثيره اسمه، فهو مجرد مدير، ملاك يشرف على مهمة شاقة ـ التاريخ.

إن الديميورج أكثر تأثيرًا بكثير: فكيف نستطيع أن نواجه مصاعبنا بدونه؟ إذا كنا على قدر هذه المصاعب، أو حتى كنا جديرين بها إلى حد ما، فقد نمتنع عن استدعائه. ولكن في مواجهة عيوبنا الواضحة، فإننا نتمسك به، بل ونطلب منه أن يظل موجودًا؛ فإذا تبين أنه مجرد خيال، فإن ضيقنا أو خجلنا سوف يكونان غير قابلين للقياس. على من غيره نستطيع أن نلقي عليه عيوبنا، ومشاكلنا، وأنفسنا؟ لقد تم تعيينه، بموجب مرسومنا، كمؤلف لنقائصنا، وهو بمثابة كبش فداء لكل ما لم نتمكن من أن نكون عليه. وعندما نجعله يتحمل عبء هذا الكون المضطرب، فإن عقولنا ترتاح إلى حد ما: لا مزيد من عدم اليقين بشأن أصولنا أو آفاقنا، ونشعر بالأمان التام في ما لا يمكن حله، ونتحرر من كابوس الوعد. إنه يستحق وزنه ذهباً: حتى أنه يبرئنا من ندمنا، لأنه تولى المبادرة ذاتها لإخفاقاتنا.

من الأهم بكثير أن نرجع رذائلنا إلى الإله بدلاً من فضائلنا. نحن نستسلم لصفاتنا الجيدة، ولكن عيوبنا تؤلمنا وتعذبنا. إن القدرة على إسقاطها في صورة إله قادر على السقوط إلى مستوى منخفض مثلنا، والذي ليس سجينًا ضعيفًا للصفات المائلة الشائعة، يعزينا ويطمئننا. لم يكن هناك إله أكثر فائدة من الشرير. أليس من الممكن أن يكون في متناول أيدينا دائمًا لالتقاط تدفق مشاعرنا السلبية؟ إن الكراهية، مهما كان شكلها، موجهة إليه في نهاية المطاف. وبما أننا مقتنعون بأن فضائلنا غير معترف بها أو مرفوضة، فلا يمكننا أن نصدق أن مثل هذا الإثم الواسع الانتشار هو من صنع الإنسان وحده. لا بد أن يكون له مصدر أعلى، ولا بد أن يكون مختلطًا ببعض الحيل القديمة، مع فعل الخلق ذاته. نحن نعلم إذن من نلوم، ومن نذم؛ لا شيء يرضينا أو يدعمنا أكثر من القدرة على تحديد مصدر إهانتنا في أبعد مكان عن أنفسنا.

أما بالنسبة للإله الذي يُسمى بالمعنى الصحيح، الإله الصالح والضعيف، فإننا نجد أنفسنا في وئام معه كلما تم محو كل أثر للعالم فينا، خلال تلك اللحظات التي تفترض وجوده، اللحظات المتساوية معه في الجوهر، والتي يتم فيها استحضاره وخلقه وارتفاعه من أعماقنا إلى الإذلال الأكبر لقدراتنا الساخرة. الله هو ناقوس الموت للسخرية. وبمجرد أن يجمع الأخير ذكائه ويكتسب اليد العليا، تصبح علاقاتنا معه غائمة ومتعثرة. عندما يحدث هذا، فإننا نتجاوز التساؤل عنه، ونريد فقط أن نطرده من اهتماماتنا وغضبنا، وحتى من ازدرائنا. لقد وجه إليه كثيرون قبلنا ضربات، حتى أصبح من غير المجدي أن نتعامل مع جثة. ومع ذلك فإننا نستمر في التعامل معه، ولو من خلال

إحباطنا لعدم تمكننا من القضاء عليه بأنفسنا.

لتجنب الصعوبات الخاصة بالثنائية، يمكننا أن نتخيل إلهًا واحدًا يمر تاريخه بمرحلتين: في المرحلة الأولى، يكون حكيمًا، شاحبًا، متشابكًا، لا يزوره أبدًا أدنى نزوة لتأكيد نفسه: إله نائم، منهك من أبديته؛ وفي المرحلة الثانية، يكون مغامرًا، مسعورًا، ميالًا إلى ارتكاب خطأ تلو الآخر، وينغمس في نشاط يستحق الاستنكار إلى أقصى حد. وبعد مزيد من التأمل، لا تبدو هذه الفرضية واضحة ومفيدة مثل فرضية وجود إلهين متعارضين تمامًا. ولكن إذا وجدت أن أيًا منهما لا يقدم وصفًا عادلًا للعالم، فيمكنك دائمًا الرجوع إلى وجهة النظر التي يتبناها بعض الغنوصيين والتي تقول إن كل شيء جاء إلى الوجود عندما قامت الملائكة بسحب القرعة.

(إنه أمر مؤسف ومهين أن نشبه الإله بشخص.) لا يمكن أبدًا أن تكون فكرة أو مبدأ مجهولًا لأي شخص تابع العهد القديم. عشرون قرنا من الجدل لا يمكن أن تنسى في يوم واحد. إن حياتنا الدينية، سواء كانت مستوحاة من أيوب أو من القديس بولس، تتكون من المشاجرات، والتجاوزات، والجنون. الملحدون الذين يسارعون إلى استخدام الشتائم، يثبتون بما لا يدع مجالا للشك أن ضحيتهم المقصودة هي شخص ما. لا ينبغي لهم أن يتباهوا؛ فتحررهم ليس كاملاً كما يتصورون: إن لديهم نفس الفكرة عن الله تمامًا مثل المؤمنين.)

إن الخالق هو المطلق بالنسبة للإنسان الخارجي؛ أما الإنسان الداخلي، على العكس من ذلك، فيعتبر الخلق تفصيلاً مزعجاً، وحلقة عديمة الفائدة، بل وعبثية. إنه مصمم على تحرير نفسه، وتطهير نفسه من كل شيء، بما في ذلك القتال - وصمة عار وعائق للوعي الذي يستشعر الضغوط على كل مستوى من الوجود وهو يشق طريقه نحو أقصى حدود العدم. إن العقل المعادي لكل ما يتخذ شكلاً ما، لكل ما يذكرنا بوجه الكون، يرفض، من خلال الجوع إلى ما هو غير ملوث، أن يتصالح مع أي شيء، أي شيء سوى "الهاوية الفوق جوهرية"، كما يسميها رويسبروك، والتي، على الرغم من المتأمل الفلمنكي، لا تطلب من طالبيها أن يكون لديهم إيمان بالضرورة، شريطة أن يكونوا قد انتهوا من المظاهر، من الحقائق نفسها. تبدأ كل تجربة دينية عميقة حيث يتوقف الديميورج عن السيطرة؛ فهي لا تجدي نفعًا معه، بل تنكره وتنفيه تمامًا. ما دام يطاردنا، هو والعالم، فلن يكون لدينا أي وسيلة للهروب أيضًا، أو للانضمام، في موجة من الفناء، إلى غير المخلوق، والذوبان فيه. بمساعدة النشوة - التي يكون موضوعها إلهًا بلا صفات، جوهر الله - نحن نرتفع نحو شكل من أشكال اللامبالاة أكثر نقاءً من اللامبالاة التي يعاني منها سيد الأرباب نفسه، وإذا انغمسنا في الإلهي، فإننا مع ذلك نتجاوز أي شكل من أشكال الألوهية. هذه هي الخطوة النهائية، ذروة التصوف، ونقطة انطلاقها هي الانفصال عن الديميورج، ورفض التعامل معه لفترة أطول والإشادة بعمله. لا يركع أمامه أحد، ولا يعبده أحد. الكلمات الوحيدة التي قيلت له هي العكس تمامًا من الصلاة، وهي الشكل الوحيد للتواصل المتاح للمخلوق والخالق اللذين سقطا على حد سواء.

ومن خلال فرض وظائف الأب والخالق والمدير العام على الإله الرسمي، تعرض لهجمات أثبتت حتمًا هلاكه. ومن يدري كم من الوقت كان من الممكن أن يعيش لو أن الناس استمعوا إلى مرقيون، من بين جميع الهراطقة، هو الذي وقف في المقدمة في المعركة ضد استحضار الشر، والذي فعل أكثر من أي شخص آخر لتعزيز مجد الإله الشرير، من خلال كرهه الشديد له. نادرًا ما نجد أمثلة لدين أضاع كل هذه الفرص في بداياته. لا شك أننا كنا سنكون مختلفين تمامًا اليوم لو أن العصر المسيحي بدأ باللعنات الموجهة إلى الخالق، لأن السماح لنا بالهجوم عليه كان من شأنه بالتأكيد أن يخفف من أعبائنا ويجعل الألفي عام الماضية أقل قمعًا. إن الكنيسة، برفضها تجريمه أو تبني العقائد التي من شأنها إدانته، كانت تلجأ بالضرورة إلى المكر والكذب. على الأقل يمكننا أن نستمد العزاء من ملاحظة أن الفصول الأكثر جاذبية في تاريخها قد كتبها أعداؤها المقربون، كل أولئك الذين حاربتهم وطردتهم، أولئك الذين، من أجل إنقاذ شرف الله، خاطروا بالاستشهاد من خلال التشكيك في مصداقيته كخالق. إنهم من عشاق الفراغ الإلهي، ذلك الغياب الذي يستمتع به الصلاح المطلق، وقد عرفوا الفرح الذي يأتي من كراهية إله واحد، وحب آخر تمامًا، دون تحفظ. لقد انجرفوا وراء إيمانهم، ولم يكونوا في حالة تسمح لهم باكتشاف ذرة الكذب الموجودة في كل عذاب، مهما كان صادقًا. ولم تكن فكرة الذريعة قد ولدت بعد، ولم تكن الإغراءات التي تحيط بنا في هذا العصر الحديث، والتي تدفعنا إلى إخفاء آلامنا خلف بعض أشكال البهلوانات اللاهوتية، قد ولدت بعد. ولكنها لم تكن خالية من الغموض: بل كانت موجودًة، مع ذلك، على المستوى الغريزي. كان هؤلاء الغنوصيون والمانويون المتنوعون، في كل الأحوال، فاسدين بالنقاء، ومسكونين بالرعب. لقد جذبهم الشر، وملأهم حتى كاد يفيض: لولا ذلك لكانوا خالين. لقد طاردوه، ولم يتركوه ولو للحظة. وإذا كانوا ناضلوا بمثل هذه الشراسة حتى تم خلقها، فإنهم كانوا يأملون سراً أن تدوم إلى الأبد حتى يتمتعوا بها ويكونوا قادرين، إلى الأبد، على ممارسة فضائلهم القتالية. ولأنهم، من أجل محبة الآب، فكروا مليًا في الخصم، فقد انتهى بهم الأمر إلى فهم أفضل للديونة من الخلاص. ولهذا السبب تمكنوا من استيعاب جوهر وجود العالم المادي. فهل ستكون الكنيسة، بعد أن بصقتهم، ماهرة بما يكفي لتبني أطروحاتهم، وخيرية بما يكفي **لإعطاء** الخالق **دور** البطولة، من أجل حرمانه في النهاية؟ إن فرصتها الوحيدة للبعث تكمن في نبش البدع، والتراجع عن لعناتها القديمة من أجل النطق بلعنات جديدة.

إن الخير، الخجول الذي يفتقر إلى الديناميكية، غير قادر على إظهار نفسه؛ أما الشر، والذي هو أكثر حماسة، فيريد أن يفرض نفسه، وينجح لأنه يمتلك ميزتين: كونه جذابًا ومعديًا، وهو ما يفسر لماذا من الأسهل على الإله الشرير أن يمد يده ويخرج من ذاته أكثر من الإله الصالح.

إن هذا العجز عن البقاء داخل الذات، والذي أظهره الخالق في مشهد مؤسف، هو شيء ورثناه جميعًا؛ ومن خلال الإنجاب، نواصل، بطريقة أخرى وعلى نطاق آخر، المشروع الذي يحمل اسمه. نحن مجرد مقلدين بائسين نضيفهم إلى "خلقه". بدون الدافع الذي أعطاه لنا، فإن الرغبة في إطالة سلسلة الكائنات لن تكون موجودة، ولا حتى إجبارنا على الانخراط في ممارسات الجسد الشاذة. كل عملية إنجاب مشبوهة؛ والملائكة، لحسن الحظ، غير قادرين على ذلك، إذ أن نشر الحياة هو نشاط مخصص للساقطين. هذا الجذام لا يتحلى بالصبر والرغبة الشديدة، ويحب أن ينمو بشكل متفشي. يجب علينا أن نثبط الإنجاب، لأن الخوف من انقراض البشرية لا أساس له من الصحة؛ مهما حدث، فسوف نجد في كل مكان وفرة من الحمقى الذين لا رغبة لهم إلا في إدامة أنفسهم، وإذا فقدوا شهيتهم أيضًا، فقد نجد دائمًا شخصين بشعين يتزاوجان من أجل هذه القضية.

إن ما يجب علينا محاربته ليس الرغبة في الحياة بقدر ما هو الرغبة في "البقاء". الآباء والأجداد إما أنهم مثيرو مشاكل أو مجانين. أليس من المحبط للغاية أن يمتلك أصغر شخص القدرة على منح الحياة، و"إحضارها إلى

العالم"؟ كيف يمكن أن يساعدنا ذلك إلا في ملء قلوبنا بالخوف أو الاشمئزاز، هذه المعجزة التي تحول في لمح البصر أي وافد جديد إلى ديميورج؟ إن ما كان ينبغي أن يكون هدية نادرة مثل العبقرية قد تم منحه دون تمييز للجميع: سخاء مزيف قلل من شأن الطبيعة إلى الأبد.

لا يُمكن أن يكون الأمر الجنائي في سفر التكوين، "أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا"، صادرًا عن إله صالح. الأرجح أنه كان سيقول "ابتعدوا" لو كان له رأي في هذا الإصحاح. ولم يكن من شأنه أبدًا أن يضيف تلك الكلمات الشريرة، "أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ، وَأَخْضِعُوهَا". ينبغي لنا أن نتخلى عن كل شيء مرة واحدة ونمحوه، ونطهر الكتاب المقدس من الشعور بالذنب الذي لحق به بسبب قبوله لهذه الأمور في المقام الأول.

ينتشر اللحم بسرعة، مثل الغرغرينا، على سطح الكرة الأرضية. إنه لا يعرف ما يكفي لمراقبة الحد، ويستمر في الهيجان على الرغم من حفلاته الجنسية، ويخطئ في اعتبار هزائمه انتصارات: لن يتعلم أبدًا. إنها تنتمي قبل كل شيء إلى سيادة الخالق، وقد ألقى فيها كل غرائزه المتهورة. ومن المنطقي أن يكون لدى المراقبين للجسد فرصة أقل للإصابة به من أولئك الذين يساعدونه على الاستمرار، والذين يضمنون استمراره. ليس الأمر كذلك، لأنهم لا يعرفون مع أي انحراف يتحالفون. في يوم من الأيام، سوف تُرجم النساء الحوامل، وتُحظر غريزة الأمومة، ويُشاد بالعقم. كانت الطوائف التي كانت تنظر إلى الخصوبة باستخفاف ــ البوغوميليون والكاثاريون ــ على حق في إدانة الزواج، تلك المؤسسة البغيضة التي دافعت عنها المجتمعات على الدوام، مما أدى إلى يأس شديد بين أولئك الذين يقاومون التنويم المغناطيسي الشائع. من يلد يحب البلاء، ويريد أن يراه يزدهر ويزداد. لقد كان هؤلاء الفلاسفة القدماء على حق، إذ اعتقدوا أن النار هي جوهر الكون والرغبة. فالنار تحرق، تلتهم، تستهلك؛ فهي إله ومدمرة للكائنات، وهي بطبيعتها غامضة، جهنمية.

لم يُخلق هذا العالم من أجل الفرح. نحن نتكاثر، مع ذلك، في المتعة. لا شك أن المتعة ليست فرحًا بل هي محاكاة لها: وظيفتها هي الخداع، جعلنا ننسى أن الخلق، حتى أصغر تفاصيله، يحمل بصمة الحزن الأولي الذي نشأ منها. إنها مخادعة بطبيعتها، وهو نفس الإحساس الذي يسمح لنا بالقيام بأداء معين، والذي، من الناحية النظرية، لا نوافق عليه. بدون مساعدتها، فإن العفة قد تتقدم، وتغوي حتى الفئران. ولكن فقط عندما نغرق في النشوة الحسية، ندرك إلى أي مدى تكون المتعة وهمية. من خلال النشوة تصل إلى ذروتها وشدتها الأعظم، ولكن هناك، في قمة النجاح، تجد نفسها مندهشة أمام عدم واقعيتها، وتسقط في الفراغ الذي هي عليه. النشوة هي كارثة المتعة.

إن الحبل بلا دنس هو شيء أقل من السخافة. لقد كان أولئك الذين روجوا للفكرة يعرفون ما يريدون تحقيقه. نحن نجد أنه من غير المقبول أن يأتي إله، أو حتى محاكمة، من جولة من الجمباز تنتهي بتأوه. ومن الغريب أنه بعد هذه الفترة الطويلة من الزمن، لم يتمكن "التطور" من صياغة صيغة أخرى. ولكن لماذا تهدر طاقتها عندما يعمل الشخص الرائج بكل طاقته لإرضاء الجميع. دعونا نوضح أمراً واحداً: ليس لدينا أي اعتراض على الحياة، فهي غامضة ومحيرة بما يكفي لإرضاء أي شخص؛ أما ما ليس كذلك فهو التمرين المعني، والذي لا نستطيع إلا أن نأسف على سهولة ممارسته، نظراً لعواقبه. مع العلم بما يخبئه القدر لكل واحد منا، فإننا نقف في حيرة من التناقض بين لحظة واحدة من النسيان والكم الهائل من العار الذي يليه. كلما تأمل المرء هذا الموضوع، كلما اقتنع بأن الأشخاص الوحيدين الذين لديهم أي فهم له هم أولئك الذين اختاروا الفجور أو الصبر، أو المماطلة أو الإخصاء.

وبما أن التكاثر يفترض فقدانًا للعقل لا يمكن التعبير عنه، فمن المؤكد أننا ـ إذا اكتسبنا بعض الحس، أو بعبارة أخرى، إذا أصبحنا غير مبالين بمصير النوع ـ سوف نحتفظ فقط بعينات قليلة منه، بنفس الطريقة التي نحتفظ بها بعينات من الحيوانات المهددة بالانقراض. فلنقطع طريق الجسد، ولنعمل على وقف نموه المروع. نحن نشهد وباءً حقيقياً في الحياة، ومجموعة من الأشياء غير القابلة للوصف. أين وكيف يمكننا أن نلتقي بالله وجهًا لوجه؟

لا يوجد رجل يخضع باستمرار لهوس الرعب، فنحن ننجح أحيانًا في تحويل أنظارنا عنه، ونكاد ننساه، خاصة عندما نتأمل بعض المناظر الطبيعية الخالية من إخواننا البشر. عندما يتطفلون بشكل مباشر، يصبح عقلنا مهووسًا مرة أخرى. لو كنا نميل إلى تبرئة الخالق، واعتبار هذا العالم مقبولاً وحتى مُرضياً، فسوف تظل لدينا تحفظات بشأن الإنسان، تلك النقطة السوداء من الخلق.

نحن أحرار في أن نتخيل أنه في يوم من الأيام، عندما يصاب الديميورج بعدم كفاية عمله أو فساده، قد يرغب في التسبب في هلاكه، وحتى الترتيب للاختفاء معه. ولكن من الممكن أيضًا تصور أنه منذ البداية كان اهتمامه الوحيد هو تدمير نفسه، حتى يتكشف المستقبل وفقًا لآليات هذا التدمير الذاتي البطيء. إن التطور الذي قد يكون بطيئًا أو متقطعًا، ولكن في كلتا الحالتين، يعني التراجع، أي التدقيق الذاتي الذي يؤدي إلى رفض الخلق من قبل صانعه.

لا يوجد شيء فينا أكثر رسوخًا وأقل وضوحًا من الشعور بفشل جوهري: إنه سر الجميع، بما في ذلك سر الآلهة. الشيء المثير للدهشة هو أن معظم الناس لا يشتبهون حتى في أنهم يشعرون بهذا الشعور. بفضل نعمة خاصة منحتها لنا الطبيعة، أصبحنا مقدرين على البقاء غير مدركين لها: إن قوة الكائن تكمن في عدم قدرته على معرفة مدى وحدته. جهل مبارك، بفضله يستطيع أن يتحرك ويتصرف. هل تم الكشف عن سره له للتو؟ مباشرة، روح المبادرة لديه تتلاشى، إلى الأبد. وهذا ما أصاب الخالق، أو ربما يصيبه.

أن نعيش منذ البداية مع الرغبة في التعرف على أنفسنا بشيء ما، دون أن نعرف ما هو. ومن السهل أن ننتقل من الكفر إلى الإيمان، أو العكس. ولكن ما الذي يمكن أن نلجأ إليه أو نتخلى عنه عندما نكون في قبضة الوضوح المزمن؟ إنها خالية من الجوهر، ولا تقدم أي محتوى يمكن للمرء أن ينكرها؛ فهي فارغة، والفراغ لا يمكن إنكاره. الوضوح هو النظير السلبي للنشوة.

من لا يحدد هويته بأي شيء لا يجد هوية في نفسه أيضًا، مما يثير تلك الصرخات الخائنة، وتلك القناعات المتذبذبة، وتلك الحمى المحرومة من النار، تلك الثنائية التي تضعف أفكارنا وحتى ردود أفعالنا. إن الغموض الذي يحكم كل علاقاتنا مع هذا العالم ومع العالم الآخر، كان شيئًا احتفظنا به لأنفسنا في البداية؛ ثم نشرناه في كل مكان حتى لا يتمكن أحد من الهروب منه، حتى لا يتمكن أي شخص حي من معرفة ما يجب أن يؤمن به. لا يوجد شيء واضح في أي مكان: نحن المسؤولون عن تعثر الأشياء وانهيارها في الحيرة. أين يوجد شيء واحد سليم، شيء واحد لا يزال سليمًا يمكننا التمسك به؟ لقد تسلل الزيف إلى المادة، وجعل منها كتلة من الاحتيال التي نبتعد عنها بمشاعر مختلطة من الاشمئزاز والخوف. ما نحتاج إليه هو موهبة تصور إمكانية الصلاة، وهو أمر لا غنى عنه لأي شخص لديه أمل في الخلاص. الجحيم هو صلاة لا يمكن تصورها.

إن إرساء الغموض الشامل هو أعظم استغلالاتنا للكوارث؛ لقد جعلنا منافسين للديميورج.

لقد كنا سعداء فقط في الأوقات التي كنا فيها، حريصين على محو أنفسنا، نقبل عدمنا بكل سرور. إن الشعور الديني لا ينبع من إدراكنا لضآلة أهميتنا، بل من حماسنا له، ومن حاجتنا إلى الانغماس فيه. كيف يمكن إشباع هذه الحاجة المتأصلة في طبيعتنا الآن بعد أن لم نعد قادرين على العيش في أعقاب الآلهة؟ في السابق كانوا هم الذين تركونا، والآن نحن الذين نتركهم. لقد عشنا معهم لفترة طويلة جدًا لدرجة أننا لم نجدهم غير مرغوب فيهم؛ كانوا قريبين جدًا منا لدرجة أننا كنا نسمع تحركاتهم - كانوا يتربصون بنا، ويتجسسون علينا: لم نعد نشعر بأننا في وطننا.... حسنًا، لقد علمتنا التجربة أنه لا يوجد مخلوق أكثر بغضًا على الأرض من جارنا. إن معرفة أن

المسافة الصغيرة التي تفصلنا عنه تمنعنا من التنفس، وتجعل أيامنا ولياليناغير صالحة للعيش. لا جدوى من قضاء ساعات في التأمل في خرابه، فهو موجود هناك، حاضر بشكل مروع. كل أفكارنا تدعونا إلى قمعه: وعندما نقرر في النهاية القيام بذلك، فإن هجوم الجبن يمنعنا. وهكذا نصبح قتلة محتملين لأي شخص يعيش في محيطنا، ولعدم قدرتنا على ارتكاب تلك الجريمة، نلتهم أنفسنا ونصبح من السذج والسفهاء في الجريمة.

إذا كان كل شيء يبدو بسيطًا في ظل الآلهة، فذلك لأننا، في ضوء إهمالهم الذي لا يُنسى، كان علينا التخلص منهم بأي ثمن: لقد كانوا بالفعل مرهقين للغاية بحيث لا يمكن التعامل معهم بلطف. وهذا ما يفسر لماذا لم يستطع كل واحد منا إلا أن يضيف صوته الصغير إلى الضجة العامة ضدهم.

الإنسان حيوان منحرف، فهو يحب فقط ما يدمره. إنه يستمتع بالحسرة، أو على الأقل بالندم: فهو يقدس ضحاياه. منذ أن قمنا بتصفية الآلهة، أصبحنا نتحدث عنهم باستمرار؛ لقد أصبحنا جميعًا علماء لاهوت.... طالما كانوا موجودين، وضعنا كل أملنا في العلم؛ والآن نرى بوضوح تام أن لديهم ما يقدمونه أكثر مما يقدمه العلم. لقد أصبحنا نعتمد عليهم مرة أخرى، ولو لمعاقبة أنفسنا لكوننا جاحدين للجميل. على أية حال، نحن لا نريد أن ننساهم. إنهم يطاردوننا، وسيستمرون في فعل ذلك لفترة طويلة قادمة؛ ومن الممكن حتى أن يصبح التاريخ المستقبلي بأكمله مجرد تأمل في مصيرهم. في السابق، عندما كان مجدهم في أوجه، كان الناس، بعد أن يشيدوا بهم بالتضحيات والثناء، يعاملونهم بلباقة، ويتركونهم في حالهم؛ لكننا نضايقهم بلا هوادة، ونستحضر ظلالهم بعقلية واحدة صارمة. نلقي بأنفسنا عليهم، نطرح الأسئلة، ونكتشف فيهم الأسرار التي زرعناها هناك لنعطي هالة من الجوهر لتقوانا الواسعة المعرفة ولكن غير المفكرة. عندما يتحول الإيمان، بسبب افتقاره إلى موضوع، إلى هوس تاريخي أو نفسي، حيث يصبح التأمل الذاتي هو هدفه الوحيد وتبريره، فإن فعل الصلاة يتحول إلى حنين إلى الصلاة، أو إلى نظرية الصلاة. نحن لا نعرف إلى من نلجأ، لقد تم دفعنا إلى أنفسنا: لقد حل فراغ رثائي محل عدة قرون من الفراغ التخريبي. كيف تمكنا من رفض هذا العدد الكبير من الآلهة؟ لحسن الحظ، لدينا واحد متبقي....

عندما نفكر في هؤلاء الرفاق أو الأعداء من جيل الألفية، وفي كل زعماء الطوائف والأديان والأساطير، فإن الشخص الوحيد الذي نكره التخلي عنه هو هذا الديميورج، الذي نرتبط به بنفس الأمراض التي نريد أن نعتقد أنه رعاها. أقل فعل في الحياة، أو ببساطة الحياة نفسها، يعيده إلى الذهن. في كل مرة نفكر في الحياة، ونتأمل أصولها، فإنها تذهلنا وتخيفنا، لأنها معجزة مخيفة لا بد أن تنبع منه، إله خاص يقف منفصلاً تمامًا. لا فائدة من الادعاء بأنه غير موجود عندما تدعونا حيرتنا اليومية إلى حقيقته وتعلنها. هل يعترض أحد بأنه من الممكن أن يكون قد وجد، لكنه مات مثل الآخرين؟ - لن يخيفنا رعبنا، بل سيعمل على إنعاشه، وسيستمر طالما استمر دهشتنا وخوفنا، مثل الفضول المرتجف الذي نشعر به تجاه كل شيء، كل شيء حي.

سيقول أحدهم: "تغلب على الخوف، حتى يبقى العجب فقط". ولكن من أجل التغلب عليه، وتبديده، يتعين علينا مهاجمة مبدأه ذاته وهدم أسسه، وإعادة بناء العالم بأكمله، وتغيير الخالق بمهارة، وباختصار، يتعين علينا أن نثق في خالق آخر.

ترجمة فريدريك براون/